النثر العباسى
فى دراسات شوقى ضيف

د. سعيد منصور

لم ينل النثر العربى من عناية مؤرخى الأدب العربى فى دراستهم للعصور الأدبية المختلفة، مثل ما ناله فى تاريخ الأدب العربى للأستاذ الدكتور شوقى ضيف، على كثرة من أرخوا للأدب العربى منذ بداية هذا القرن، وكثرة ما كتب من دراسات وبحوث عالجت هذا الحشد الضخم من موضوعات الأدب العربى، وأعلامه، واتجاهاته، وفنونه.. وتود هذه الكلمة أن تنحصر فى دراسة شوقى ضيف للنثر الفنى فى «العصر العباسى»، الذى تناوله جزءان من سلسلة تاريخ الأدب العربى، التى بلغت حتى الآن ستة أجزاء.كما تناوله أيضًا كتاب «الفن ومذاهبه فى النثر العربى»، ولقد سارت هذه الدراسات، وستسير بإذن الله، بكل ما اتصفت به بحوث أستاذنا الجليل من دأب واستيعاب عبر منهج تاريخى تحليلى، يرصد حركة التطور ويتابعها، ويقف عند مظاهر ازدهار الفن فيها، وينفذ إلى ما وراء ذلك من أسباب ترجع إلى تأثير الحياة السياسية، والاجتماعية، والعقلية، فى كل فترة من فترات هذا التطور.. ثم هى بعد ذلك، تقف عند الفنون والموضوعات، ترد ذلك كله إلى أعلام الكتاب، من أصحاب كل فن وموضوع، لتخلص من ذلك إلى النصوص الأدبية النثرية، تستخرجها من مظانها الأولى ومصادرها الأصلية، لتحلل النص وتستقرئه وترجعه إلى الأصل، أو المذهب الفنى الذى صدر عنه.

كان لا بد إذن – وهذه هى صورة المنهج فى إطارها – العام – أن تكون هذه الوقفة عن الحياة فى العصر العباسى، بمرحلتيه الأولى والثانية فى أشكالها الكبرى.. صورة الحياة العباسية فى شكلها السياسى.. وما يتصل به من أحداث كبرى. وفى شكلها الاجتماعى وما يتصل به من مشكلات اقتصادية، ثم فى شكلها العقلى وما يتصل به من شئون دينية وثقافية، ثم ما يتبع ذلك كله من دفع تيار الحضارة الإسلامية فى جداولها الكبرى، التى يستمد منها الشعراء كما يستمد منها أدب الأدباء، وفكر الكتاب واتجاهات النثر العربى كل ما يدبج من رسائل فنية، وما يؤلف من مؤلفات أدبية، وما يجرى على ألسنة الخطباء من خطابة لا تغفلها النظرة الشاملة، أجرى الحياة الأدبية فى الجداول التى تجرى فيها تيارات النثر العربى.

فإذا ما رجعنا إلى الحياة فى العصر العباسى الأول، وقد انتقلت عاصمة الدولة شرقًا إلى العراق - تتمخض عن نظم سياسية وإدارية جديدة تؤثر من غير شك فى اتجاه حركة التأليف، بل توجه أيضًا حركة الترجمة بكل ما تشعبت إليه من شعب، وما سلكت إليه من دروب، وما بعثته علوم الأوائل من مؤثرات ثقافية وفكرية ومذهبية. يقول شوقى ضيف:

«بذاك عمت الروح الفارسية فى الحياة العباسية، حتى الخليفة نفسه، لم يعد كأسلافه الأمويين، يمثل شيخًا كبيرًا من شيوخ القبائل العربية، بل أصبح خلفًا لملوك الفرس الساسانيين، فله وزراؤه وحجابه وبلاطه، وله نفس التقاليد الفارسية.. والذى لا ريب فيه أن هذه الثقافات الدخيلة التى نقلت إلى العربية وسعت طاقتها، بما اكتسبت من المعانى العقلية والفلسفية، وقد أصبح النثر العربى نثر ثقافة متشعبة، تمدها روافد كبيرة من إيران والهند واليونان، وليس ذلك فحسب، فقد أخذت تدخل فى هذا النثر طرائق النظر الأجنبية وأساليب الأجانب فى تفكيرهم، والذى لا ريب فيه أيضًا أنه قام على هذا العمل نخبة من رجال الفكر الذين يحسنون اللغتين المنقول عنها والمنقول إليها، فإذا هم يستخدمون أسلوبًا مولدًا جديدًا يحتفظون فيه للعربية بصورتها النحوية والتركيبية.. وكانوا كثيرًا ما يضيفون صيغًا اجديدة، ولكنهم لم يبتعدوا بها عن تراكيب العربية، ومن يقرأ كتب ابن المقفع، وهو من أوائل المترجمين يرى كيف استطاع أن يضفى على أساليبه الطوابع العربية تامة كاملة، وبذلك اتسعت لغة الصحراء، وأصبحت لغة ثقافية ذات أسلوب مرن، يستوعب كل ما لدى الأجانب من كنوز المعرفة، ومذاهب الفلسفة، مما كان له أثره فى الأدب نثره وشعره.. وعلى هذا النحو أصبح النثر العربى فى العصر العباسى متعدد الفروع، فهناك النثر العلمى، والنثر الفلسفى، والنثر التاريخى والنثر الأدبى الخالص، وكان فى بعض صوره امتدادًا للقديم، وكان فى بعضها الآخر مبتكرًا لا عهد للعرب به، على شاكلة ما هو معروف فى كتابات سهل بن هارون والجاحظ. وظلت الخطابة مزدهرة فى أوائل هذا العصر. وإن كان قد أسرع الذبول إلى الخطابة الحفلية، إذ لم تعد القبائل تقدم بوفودها على الخلفاء، كما كان الشأن فى عصر بنى أمية، أما الخطابة السياسية فظلت فترة نشيطة، بحكم دعوة بنى العباس لأنفسهم. حتى إذا استقام لهم الأمر أصابها ما أصاب الخطابة الحفلية من الذبول»[1].

كانت هذه الصورة العامة للتطور الذى شهده النثر العربى فى العصر العباسى الأول، تبعه تطور بعيد فى النثر العربى، شهده بعد ذلك العصر العباسى الثانى، حيث اتسعت - كما يقول شوقى ضيف «الطاقات المستكنة» فى اللغة العربية؛ ليحمل النثر العربى فى أوانيه الثقافات

---

(١) الفن ومذاهبة فى غلنثر العربى ص ١٢١، ١٢٤ - ١٢٦.

الأجنبية المختلفة «حملا لايزال يروع الباحثين» (العصر العباسى الثانى ص ٥١٣)، وقد تقدمت بيئة المتكلمين فى هذا العصر أيضًا من أجل «وضع قواعد البلاغة العربية.. وأخذوا يحاولون مبكرين التعرف على مقومات البيان العربى، ودار بينهم كلام كثير عن البلاغة وقواعدها البيانية» (ص ٥١٨)، مثل ما فعل الجاحظ فى البيان والتبين، كما قدمت بيئة اللغويين كتبًا مختلفة، منها ما يعتمدعلى رواية الأشعار الغريبة، وبعض أخبار عن الأعراب مثل مجالس ثعلب.. وكتاب الكامل للمبرد.. وأدب الكاتب لابن قتيبة.. وعلى ضوء هذين الذوقين اللذين مثلتهما بيئة المتكلمين وبيئة اللغويين، صنف إبراهيم بن المدبر رسالته العذراء، يقول شوقى ضيف: «هى أول رسالة تناولت بدقة صناعة النثر.. وآداب الكتابة.. فيطلب ممن يريد حذقها طول الاختلاف إلى العلماء.. ومدارسة كتب الحكماء ورسائل المتقدمين والمتأخرين، والموقوف على الأشعار، والأخبار، والسير، والأسماء، والخطب ومحاورات العرب، ومعانى العجم، وحدود المنطق، وأمثال الفرس ورسائلهم وعهودهم وسيرهم». (العصر العباسى الثانى ص٥٢١).

وفى متابعة هذا التحليل الدقيق لتلك البيئات التى عنيت بحركة النثر العربى فى تيار الحياة الأدبية، تأتى «بيئة المترجمين والمتفلسفة ومن كان ينهج نهجهم فى الدعوة لمعايير البلاغة العربية، ولعل خير كتاب قدمته هذه البيئة فى مجال النثر والكتابة.. هو الكتاب الذى نشر باسم نقد النثر منسوبًا إلى قدامة بن جعفر..» (العصر العباسى الثانى ص ٥٢٣). ويتوقف شوقى ضيف لتقييم أثر هذه البيئات المختلفة، بما أضافته إلى دفعة التطور، فيرى أن «بيئة المتكلمين هى التى سيطرت بما وضعته من معايير على أذواق الكتاب والأدباء فى العصر، وظل ذلك حقبًا متطاولة، وهى بيئة كانت تزاوج بين المعايير العربية والمعايير الأجنبية بحيث ظلت أوضاع العربية قائمة، كما ظلت مقوماتها حية، مقومات تعتمد على التراث القديم، وتتطور ما يلائم العصر والثقافات الحديثة، تطورًا لا يجنى على العربية، بل تجنى منه ثمارًا رائعة، غذاء للعقول وشفاء للقلوب والأرواح. على هذا النحو كان ذوق بيئة المتكلمين هو الذوق الأدبى العام، وكان لذلك أثره فى أن ازدهر النثر العربى وأخذت موضوعاته تتنوع تنوعًا واسعًا، وقاد هذا الازدهار الجاحظ المتكلم المشهور (ص ٥٢٤).

وبهذا التحليل ترد اتجاهات النثر العربى فى عصر من أزهى عصوره إلى أحضانها التى خرجت منها.. وبيئاتها التى ترعرعت فيها.. وأصولها التى أخذت عنها.. بل إنها فى الحقيقة هى العلل والأسباب التى أدت إليها. وتمضى هذه النظرة الشاملة لتتابع مسيرة النثر العربى، التى اندفع بها فى طريق التقدم لتتعدد فى العصر العباسى فنونه الأدبية فى صورتيها القولية والكتابية، إن هذه الصور لتتعدد أشكالها ليوضع هذا كله فى ميزان النقد، ويرد إلى مذاهب الفن المختلفة، لتتدرج بينها أساليب النثر العربى فى مراحل الصنعة، وتكتسب كل مرحلة مما أحاط بها من

ظروف العصر وأوضاعه الاجتماعية والثقافية، والحضارية أيضًا.. وكأن حركة التطور فى النثر العربى كانت تواكب - فى رؤية شوقى ضيف - حركة الحياة فى جميع مظاهرها.. ومن هنا كانت الوقفة التحليلية التى رأيناها تصنف الفن ومذاهبه فى النثر العربى، يقول شوقيويف «وعلى سنن من طبائع الحياة أخذ النثر يتطوّر تطورًا واسعًا، إذ حمل خلاصة هذه المدنية، وملئت أوانيه بشرابها الجديد الذى اختلفت ألوانه باختلاف ينابيعه الكثيرة».
(العصر العباسى الأول ص ٤٤١)

ونقف الآن عند تطور الفنون النثرية القولية، كما بدت عند شوقى ضيف فى العصر العباسى الأول، فنراها تشمل فن الخطبة والوعظ والقصص. أما الخطابة، فبينما تنشط الخطابة السياسية فى مطالع هذا العصر لاتخاذ العباسيين لها أداة فى بيان حقهم فى الحكم.. (راجع العصر العباسى الأول ص ٤٤٨).. إذا بالخطابة الحفلية التى كنا نعهدها من قبل قوية فى عصر بنى أمية تضعف الآن «لسبب طبيعى، وهو أن وفود العرب لم تعد تفد على قصور الخلفاء، وبالتالى لم يعد خطباؤها يفدون عليهم، فقد أسدلت الحجب بين الخليفة والرعية، ولم يعد يلقى وفودها ولا خطباءها المفوهين، واقتصرت الخطابة الحفلية حينئذ على بعض مناسبات.. (العصر العباسى الأول ص ٤٥٠)، أما الخطابة الدينية، فقد ظل لها ازدهارها.. «وعلى نحو ما كان الخلفاء، والولاة يشاركون فيها لعصر بنى أمية، كانوا يشاركون فيها أيضًا لهذا العهد» (ص ٤٥١).

ويتابع شوقى ضيف استقراء نصوص الخطابة فى العصر العباسى الثانى، فيرى الخطابة السياسية تضعف، وتضعف معها الخطابة الحفلية، أما الخطابة الدينية فهى «إن كانت قد ضعفت على ألسنةالخلفاء، فإنها نشطت نشاطًا عظيمًا فى المساجد» (العصر العباسى الثانى ص ٥٢٧).

ومن الفنون القولية فن الوعظ الذى يتصل بالخطابة الدينية التى مرت بنا، والذى نهض به فريق كبير من الوعاظ، كانوا «يستمدون دائما من الذكر الحكيم، وأحاديث الرسول الكريم ﷺ، وأقوال الصحابة، ومن سبقوهم إلى الوعظ فى العصر الأموى من مثل الحسن البصرى.. وكثير من الوعاظ كانوا يمزجون وعظهم بالقصص الدينى وتفسير بعض آى القرآن، وهو مزج قديم منذ الصدر الأول للإسلام» (العصر العباسى الأول ص ٤٥٤) وإذا كان القصاص والوعاظ، فى العصر العباسى الأول، «وقد ارتقوا بصناعة النثر فى المعانى التى كانوا يرددونها رقيًا بعيدًا» (العصر العباسى الأول ص ٤٥٦)، ففى العصر العباسى الثانى أخذت تنشأ «طبقة جديدة من الوعاظ، كانوا يسمون بالمذكرين، ويسمى مجلسهم باسم مجلس الذكر أى ذكر الله وتسبيحه، وكانوا من الصوفية» (العصر العباسى الثانى ص ٥٢٨).. ليس هذا فحسب، بل «تكونت حول هؤلاء الوعاظ من المتصوفة سريعًا حكايات كثيرة تصور جهادهم العنيف فى قمع شهوات النفس ولذاتها، وكيف كان الصوفى يفرض على نفسه عناءً شاقًا مضنيًا لا يطيقه

إلا أولو العزم».. «وهذه الحكايات الصوفية أخذت تكون ضربًا من ضروب الآداب الشعبية العربية» (العباسى الثانى ص ٥٢٩). إذ كان الناس يتداولونها رجالاً ونساءً وشيبًا وشبانًا، وكأن التصوف كان عاملاً قويًا فى ظهور تلك الآداب، وطبعها بطوابع الشعب ولغته وألفاظه». (العصر العباسى الثانى ص ٥٣٠).

ومن فنون النثر القولية أيضًا المناظرات.. التى «قلما عنى مؤرخو الأدب العباسى بالحديث عنها».. مع أنها كانت من أهم الفنون النثرية، وكانت تشغل الناس على اختلاف طبقاتهم، لسبب بسيط وهو أنها كثيرًا ما كانت تنعقد فى المساجد.. بين المتكلمين والفقهاء وأصحاب الملل والنحل لهذا العصر». (العصر العباسى الأول ص ٤٥٧).

أما المناظرات الكلامية التى حمل لواءها المعتزلة وغير المعتزلة، فقد نهضت بالنثر العباسى نهضة رائعة، كما يرى شوقى ضيف (الفن فى النثر العربى ص ١٢٧) يقول: «واقرأ فى كتاب الحيوان للجاحظ، فلن تجد موضوعًا إلا خاضوا فيه، واستخرجوا منه معانيه، حتى لتظن أنه لم يكن هناك أديب بارع إلا وتستهويه تلك الجماعة، وتجذبه إلى ميادينها، ليبحث فى الأسباب الكونية ومسبباتها، والعلل ومعلولاتها.. وقد دعتهم رغبتهم فى إحكام لمناظراتهم، ومناقشاتهم، أن يبحثوا بحثًا واسعًا فى بلاغة الكلام، وكيف يبلغ المتكلم بكلامه الكفاية وغاية الحاجة، بل كيف يروع السامعين ببيانه، وحلاوة ألفاظه، وحسن مخارج حروفه، حتى تسكن القلوب إليه، وتثلج الصدور». (الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٣٠-١٣١) ويقول: «وقد ملأ الجاحظ نحو مجلد من كتابه الحيوان بمناظرة، انعقدت بين معبد والنظام فى الكلب والديك أيهما أفضل،ظل يورد أدلة كل منهما فى صورة رائعة، وهى صورة تدل دلالة بينة على مدى ما أصاب هؤلاء المتكلمون من تنويع لأفكارهم، وتصحيح لمقدماتهم وتصريف لأساليبهم وألفاظهم، وإذا كانت القدرة البيانية بلغت باثنين منهم هذا المبلغ فى مساوئ الديك ومحاسنه ومنافع الكلب ومضاره، فما بالك بما كان يجرى بينهم فى مسائل الدين واستقصاء كل مسألة وجمع معانيها وترتيب أفكارها وألفاظها؟» (الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص١٢٨-١٢٩). ويرى شوقى ضيف أن هذه القدرة البارعة فى الجدل، وفى تأليف الحجج والأدلة، إنما «تدل على ما أصاب العقل العربى حينئذ من رقى، جعله يستقصى ما يتحدث عنه أحسن استقصاء، ويحرص فيه المقتكم على التدقيق والتعمق كأشد ما يكون التعمق والتدقيق، وكان يصحب ذلك بكثير من الظروف ومن السفسطة التى تدل على ترف العقل وارتفاعه عن الآراء الشائعة، ويصور ذلك من بعض الوجوه ما حكاه الجاحظ فى فاتحة كتابه البخلاء، عن مذهب يسمى باسم الجهجاه «فى تحسين الكذب فى مواضع، وفى تقبيح الصدق فى مواضع، وفى إلحاق الكذب بمرتبة الصدق، وفى حط الصدق إلى موضع الكذب..» (العصر العباسى الأول ص ٤٦٢) ويرى شوقى ضيف أن هذا

التقبيح للأشياء المستحسنة والتحسين للأشياء المستقبحة إذا كان قد «عرف فى الأدب الفهلوى القديم، وأن العباسيين تأثروا فى هذا الاتجاه بما كان منه فى هذا الأدب». يقول.. «ونحن لا ننفى ذلك، وإنما نلاحظ أنه حتى إن صح فإن العباسيين توسعوا فى هذا الاتجاه بتأثير مناظرات المتكلمين، وما داخلها من سفسطة أحيانًا، بحيث أصبح هذا التحسين والتقبيح نمطًا من أنماط التفكير العباسى، وبحيث عم فى كل شىء، مما هيأ فيما بعد لظهور كتب المحاسن والمساوئ» (العصر العباسى الأول ص٤٦٣).

أما إذا انتقلنا إلى ما بعد هذا العصر لنتابع دراسة شوقى ضيف لتطور المناظرات من بين فنون النثر القولية، فى العصر العباسى الثانى.. فسنرى أن المعتزلة «لم يتراجعوا عن الوظيفة التى ندبوا لها أنفسهم إزاء أصحاب النحل والملل.. وظل الجدلُ عنيفًا بينهم وبين غيرهم من المتكلمين». (العصر العباسى الثانى ص ٥٣٥). كما كثرت المناظرات بين أصحاب المذاهب الفقهية. «وفى طبقات الشافعية للسبكى أطراف من هذه المناظرات.. وبالمثل كان اللغويون والنحاة يتناظرون، وشائعة معروفة مناظرات المبرد مع ثعلب..» (ص ٥٢٦).

ويقول شوقى ضيف «وحتى الكتب المؤلفة فى هذا العصر نجد عليها مسحة المناظرة والجدل واضحة، حتى على عنواناتها، إذ كثيرًا ما تعنون كلمة الرد أو كلمة النقض، فالكتاب يؤلف ردا أو نقضًا لكتاب آخر، وكأن المناظرات لم تقف عند المجالس والمحاضرات فى المساجد، بل امتدت إلى الكتب والمصنفات، ويوضح ذلك الجاحظ فى بعض كتبه ورسائله.. وكأنما كانت المناظرات والمحاورات لغة العصر الفكرية، فدائمًا مناظرات ومجادلات فى كل مكان وفى كل موضوع علمى أو فلسفى أو أدبى». (العصر العباسى الثانى ص٥٣٩).

ويمضى التطور التاريخى لفن المناظرات بعد ذلك حتى نصل به - مع شوقى ضيف - إلى كتب المحاسن والأضداد كما ذكرنا من قبل،من ذلك كتاب المحاسن والأضداد المنسوب خطأ إلى الجاحظ، يقول شوقى ضيف: «ومما يشهد أن الكتاب ليس للجاحظ، وإنما هو لمؤلف تال لعصره أن نجد فيه نقولاً عن عبدالله بن المعتز، وكان فى الثامنة من عمره حين توفى الجاحظ. الكتاب مجموعة كبيرة من المناظرات فى الأخلاق والشمائل، فكل خلق أو كل شىء تعرض محاسنه ثم تعرضمعايبه، وتصور المعايب والمحاسن فى أخبار وأقاصيص وحكايات، تلتقى فيها الثقافات المعروفة حينئذ وما كان يتسرب منها إلى كتب السمر، وفى مقدمتها الثقافة الإسلامية». (ص ٥٤١) ويقول شوقى ضيف «ويلتقى بهذا الكتاب فى موضوعاته وأكثر مادته كتاب المحاسن والمساوئ لإبراهيم بن محمد البيهقى.. وطبيعى أن تكون مصادر هذا الكتاب هى نفسها مصادر الكتاب الأول المنحول للجاحظ، لأنه ليس أكثر من نسخة مجددة له» (ص٥٤٦ - ٥٤٧).

وإذا كان ما رأيناه فيما سبق يتصل جميعه بفنون النثر القولية.. فإن الفنون النثرية الكتابية، قد انفتحت أمامها أبواب التقدم والرقى والأصالة فى العصر العباسى فى صورة لم يشهدها تاريخ النثر العربى قبل هذا العصر، وربما كان ذلك ايضًا بعده حتى مطلع العصر الحديث، تلك هى الصورة التى يرسمها منهج شوقى ضيف الذى عرفنا خطواته السابقة، ونعرف الآن كيف تمضى بنا قدما لتقف بنا بعد ذلك وقفة خاصة، عند فن الكتابة التى نشطت نشاطًا واسعًا فى هذا العصر، «فقد توفر عليها - كما يقول شوقى ضيف - مئات من أصحاب الأقلام يحدوهم فى ذلك ما كانت تدره عليهم من أرزاق واسعة، وكان من يظهر منهم مهارة فى دواوين الخلافة سرعان ما يرقى إلى رياسة الديوان الذى يعمل فيه، وقد تقبل عليه الدنيا فيصبح رئيسًا لمجموعة من الدواوين، وقد يصبح وزيرًا للخليفة يسوس الدولة، ويدبر أموره وشئونها، فإن لم يصبح وزيرًا أصبح واليًا لإقليم من الأقاليم... وعلى هذا النحو كانت الكتابة فى هذا العصر الجسر الذى يصل الشخص إلى أرفع المناصب، وكان من يتقنها من الوزراء والقواد والولاة يلقى الإكبار والإعجاب فى كل مكان». (العصر العباسى الأول ص ٤٦٥).. ويقول شوقى ضيف «ومن ينظر نظرة عامة فى موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر يلاحظ أنها كانت تتناول تصريف أعمال الدولة، وما يتصل بها من تولية الولاة، وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهود، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد، والأمان، وأخبار الولايات وأحوالها فى المطر والخصب، والجدب ووصاياهم، ووصايا الوزراء والحكام فى تدبير السياسة والحكم». (العصر العباسى الأول ص ٤٦٨).

ومع العصر العباسى الثانى كانت الدواوين فى سامراء بغداد أشبه بمدرسة فنية كبيرة، يفد عليها الشباب ويختبرون اختبارًا دقيقًا.. ولا ريب أن ذلك جعل التنافس على النهوض بالكتابة فيها يبلغ الذروة، وهو تنافس دفع إلى التثقف الواسع بكل ألوان الثقافات، وفى مقدمتها الثقافة اللغوية». (العصر العباسى الثانى ص ٥٥٠ - ٥٥١).. «وقد أخذ كتاب الرسائل الديوانية منذ أواسط القرن الثالث الهجرى يصطنعون السجع فى جوانب من رسائلهم... وحقا أخذ السجع يدخل فى الرسائل الشخصية، منذ القرن الثانى كما صور ذلك كتاب العصر العباسى الأول على نحو ما يلقانا فى رسالة ابن سيابة المشهورة، ولكنّ الرسائل الديوانية، ظلت تكتب بأسلوب مرسل، يشيع فيه أحيانًا الأزدواج، أما السجع فيندر أن نلتقى به فى تلك الرسائل، وكأن الأذواق أخذت تستعد لشيوعه، وانتشاره فى الكتابة الديوانية لهذا العصر». (العصر العباسى الثانى ص ٥٥٥) لكن السجع لم يلبث أن «أصبح ظاهرة عامة فى الرسائل الديوانية» (ص ٥٦٠)... حتى أصبح «لغة جميع الرسائل منذ أوائل القرن الرابع للهجرة، بل مع أواخر القرن الثالث، فليس هناك كاتب إلا ويسجع، وإن فاته السجع فى مكان من رسالته عاد إليه فى الأمكنة الأخرى» (ص ٥٦١). بل إن «السجع أصبح منذ خلافة المقتدر اللغة العامة للدواوين،

فالرسائل تمتلئ بزخارفه ولآلئه، إذ غدا المثل الأعلى للجمال الفنى فى الكتابة الديوانية، فلابد فيها من قوافيه وفواصله، ولابد من تساوق أنغامه وألحانه فى الكلام» (ص ٥٦٢).

ويقف الدكتور شوقى ضيف عند فنون النثر الكتابى الأخرى فى العصر العباسى الأول مثل فن التوقيعات، وهى كما يقول «عبارات موجزة بليغة تعود ملوك الفرس، ووزراؤهم، أن يوقعوا بها على ما يقدم إليهم من تظلمات الأفراد فى الرعية وشكاواهم، وحاكاهم خلفاء بنى العباس، ووزراؤهم فى هذا الصنيع... ودارت فى الكتب الأدبية توقيعات كثيرة أثرت لكل خليفة عباسى كل وزير خطير... ولعل وزيرًا لم يبرع فى التوقيعات براعة جعفر بن يحيى البرمكى... قال ابن خلدون: (كان جعفر بن يحيى يوقع فى القصص بين يدى الرشيد ويرمى بالقصة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء فى تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها، حتى قيل انها كانت تباع كل قصة منها بدينار» (العصر العباسى الأول ص ٤٨٩ - ٤٩٠).

وننتقل بعد هذا مع الدكتور شوقى ضيف إلى الرسائل الإخوانية والأدبية، فقد نمت هذه الرسائل فى العصر العباسى الأول نموًّا واسعًا «تصور - كما يقول - عواطف الأفراد ومشاعرهم، من رغبة ورهبة، ومن مديح وهجاء، ومن عتاب واعتذار واستعطاف، ومن تهنئة واستمناح، ورثاء أو تعزية، وكانت هذه العواطف تؤدى فى العصر الأموى بالشعر، وكان من النادر أن تؤدى بالنثر، أما فى هذا العصر فقد زاغحمفيها النثر الشعر بمنكب ضخم، وأتاح له ذلك أمران: أولاً ظهور طبقة ممتازة من الكتّاب الذين يجيدون فيه إجادة رائعة، وخاصة من كان منهم يكتب فى الدواوين، إذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة واسعة، وكانوا يعنون بتحبير كلامهم، وتجويده وحشد كل ما يمكن فيه من عناية فنية.. والأمر الثانى مرونة النثر ويسر تعابيره وقدرته على تصوير المعانى بجميع تفاريعها قدرة، لا تتاح للشعر لارتباطه بقواعد موسيقية معقدة من وزن وقافية. وقد طوع هؤلاء الكتاب الديوانيون أو السياسيون أساليبه، ومرنوها على أن تحمل كثيرًا من المعانى الجديدة غير المألوفة، وبذلك كله ثبت النثر للشعر فى التعبير عن العواطف التى طالما عبر عنها، بل لقد أظهر فى ذلك طواعية لعلها لم تكن تتاح حتى لكبار الشعراء». (العصر العباسى الأول ص ٤٩١).

ويقول شوقى ضيف «ومما يدل دلالة واضحة على أنه رقى فى هذا العصر رقيًّا واسعًا، حتى فى المجال العاطفى الخالص الذى طالما مرنت اللغة على أدائه شعرا، وهو رقى تتزاوج فيه المادة العقلية بما استنبط الكتاب من دقائق المعانى، واللذة الشعورية بما استنبطوا من دقائق الأحاسيس والصور، وما بثوا فى ألفاظهم من حسن الاختيار للصيغ، من جمال التقابل بين العبارات والجمل، حتى ليحاول بعض الكتاب أن يسجع فى كلامه، حتى يصوغه صياغة موسيقية تامة» (ص ٤٩٨). «وعلى هذا النحو لم يترك الكتاب فنًّا من فنون الشعر إلا كتبوا فيه،

وعبروا عنه بكتاباتهم موجزين تارة ومطنبين تارة أخرى، محاول بكل ما استطاعوا أن يظهروا القارئ على براعتهم وتفننهم فى الأداء». (ص ٥٠٠)، بل لقد «دفعهم تفننهم فى بعضها أن يتحولوا بها إلى ما يشبه الرسائل الأدبية الخالصة، وهى التى تتناول خصال النفس الإنسانية، وتصور أهواءها وأخلاقها، وتوضح لها طريقها إلى الخير، حتى لا تسقط فى مهاوى الشر..» (العصر العباسى الأول ص ٥٠٢).

وفى العصر العباسى الثانى تستمر منافسة النثر للشعر فى مجالاته الخاصة، وهى مجالات الوجدان.. «حتى لنرى قومًا إذا سئلوا عن الكلام أو الوصف هل يكون شعرًا أو نثرًا فضلوا أن يكون نثرًا» (العصر العباسى الثانى ص ٥٦٢).. ويؤرخ شوقى ضيف لتطور النثر الفنى فى هذا المجال متتبعًا موضوعاته ومراحله، ويقول: «كان الكتاب يكثرون من الدعوة للزيارة، ولقضاء بعض الوقت فى اللهو ولسماع الغناء أو للسمر والطعام. وأكثروا من التهانى فى كل مناسبة فى الأعياد، وفى الزواج وفى إنجاب الأولاد وفى ختانهم، وفى الحج وقضاء مناسكه، وفى وصف الطبيعة شتاء وفى الربيع، وقد تعقبنا انتشار السجع فى الرسائل الإخوانية طوال العصر لندل على أن ذوقًا عامًّا أخذ يعنى به، وهى عناية جعلته يعم فى تلك الرسائل مع أواخر القرن الثالث، بل لقد أخذ يعم - منذ أواسطه»... ولم يقف انتشار السجع وشيوعه منذ انتشار الرسائل الإخوانية والديوانية، فقد أخذ يشيع ى الرسائل الأدبية الخالصة، وكان الجاحظ قد أشاع فى تلك الرسائل أسلوب الازدواج المعروف به، غير أن من تلوه فى القرن الثالث الهجرى أخذوا يدخلون عليها السجع ويكثرون منه، على نحو ما تصور ذلك رسالة لابن المعتز، كتب بها إلى بعض أصدقائه يصف سامراء ويأسى لخرابها «ويذم بغداد وأهلها، وهى أشبه بمناظرة بين البلدتين: العاصمة القديمةسامراء، والعاصمة الجديدة بغداد.. ويطل القرن الرابع، وإذا هذه العناية تصبح هى الذوق العام فى الكتابة الأدبية، فليس هناك كاتب نابه إلا ويتخذ هذا الأسلوب الفنى الجديد أسلوب السجع وما يطوى فيه من زخارف البديع». (العصر العباسى الثانى ص ٥٧٠ - ٥٧١، ٥٧٣).

ويتبع بحث هذا التطور فى تاريخ النثر العربى لهذا العصر العباسى فى مرحلتيه الأولى والثانية - عند شوقى ضيف - دراسة تختص بأعلام الكتاب فى العصرين.. أما العصر العباسى الأول، فقد شهده ابن المقفع، وسهل بن هارون، وأحمد بن يوسف، وعمرو بن مسعدة، ومحمد بن عبد الملك الزيات.. وكان لكل واحد من هؤلاء دوره فى النهوض بالنثر العربى لهذا العصر.. غير أن ابن المقفع خاصة - كما يرى شوقى ضيف - «كان من أوائل من وطدوا هذا الأسلوب العباسى المولد، إن لم يكن أول من وطده وخاصة فى ميدان الترجمة، وهو أسلوب يقوم على السهولة والوضوح مع توفير الجزالة والرصانة، وكان يعمد فيه إلى الإيجاز،

فالمعانى تؤدى بأقل الألفاظ دون أن تقصر عنها، ودون أن تطول طولاً يجحفف حقوقها، ولعل ذاك هو الذى جعله يعدل عن أسلوب السجع، وكذلك عن أسلوب الترادف الصوتى، الذى سبق أن لاحظناه عند الوعاظ وعند عبد الحميد الكاتب وأستاذه سالم.. لقد كانت غايته أن يوفق بين اللفظ الدال والمعنى المدلول... وقد ظلت القرون التالية تتداول كثيرًا مما ترجمه، وخاصة كليلة ودمنه والأدب الكبير والأدب الصغير، وهذا الصمود للتداول مرجعه هذا التعاون الوثيق بين المعنى الحصيف واللفظ الرشيق» (الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص١٤٣-١٤٤).

أما سهل بن هارون، فيظهر أنه كان «أهم كاتب ظهر خلال القرن الثانى الهجرى»، وإن لم تصلنا من آثاره إلا «بقية ضئيلة من هذا المجهود الضخم الذى وصفه الجاحظ وابن النديم وأمثالهما». يقول شوقى ضيف «ولولا أن الجاحظ احتفظ لنا فى كتابى البخلاء، والبيان والتبيين، بأطراف من عمله ما استطعنا أن نصدر حكمًا دقيقًا على صياغته ولا على صنعته». (ص ١٤٩). وفى تتبع روح الأسلوب فى كتابته وحركة الفن فيه يقول شوقى ضيف «ما من ريب فى أن صوت سهل قد اتضح لنا الآن بجميع خصائصه، فهو يعمد إلى الجدل والدقة فى الحوار، كما يعمد إلى شىء طريف فى أسلوبه، إذ نرى الألفاظ تتوازن، لكن لا فى شكل سجع بل فى شكل تقطيعات دقيقة، وكأنى بسهل لم يكن يعمد إلى أداء أفكاره بلفظ فصيح فقط كما كان يصنع ابن المقفع، بل كان يعمد إلى ضروب من التوقيع الصوتى فى اللفظ حتى تستقيم لأسلوبه فنون من الجمال المادى الذى يخلب سامعيه، كى يؤثر فى وجدانهم وعواطفهم، بجانب ما يؤثر به فى عقولهم من حجاجه وجدله والتماسه للبراهين والأدلة على أفكاره...، وعلى هذا النحو كانت تندمج فى أساليبه خصائص موسيقية فى خصائص أخرى عقلية نلمحها فى هذا الجدل، وهذا الحوار، وما يبدو عليه من تلاوين عقلية أحدثتها الثقافة الفلسفية فى تفكيره وأدائه لمعانيه، وقد كان يعرف كيف يوازن بين هذه التلاوين العقلية وما سبقها من تلاوين موسيقية، فتخرج أساليبه وقد التمعت عليها شيات من التأمل والعقل الدقيق، كما التفت عليها شيات أخرى من التوقيع والترادف الموسيقى، وسنرى ذه الشيات جميعًا تمتد تحت أعيننا فى كل ما دبج الجاحظ وحبره من رسائل، وإنه ليتأثر فى هذه النزعة سهلا من طرف، وبيئة المتكلمين الذين نشأ فيهم من طرف آخر». (الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٥١ - ١٥٢).

ومع رصد الباحث لحركة الفن هذه التى تمتد من أسلوب سهل بن هارون إلى أدب الجاحظ نصل مع شوقى ضيف إلى الجاحظ الذى يوضع «على رأس كتّاب العصر العباسى غير مدافع ولا منازع» (ص ١٥٤). ومن هؤلاء الكتاب إبراهيم بن العباس الصولى، وابن قتيبة، وسعيد بن حميد، وأبو العباس بن ثوابة.

فللجاحظ «نقدٌ يَقف فى بيئة المعتزلة الجدلة اللسنة، وبيانٌ متأثر بكتابات عصره وخاصة

كتابات سهل الذى كان يشغف به كما لاحظ ابن النديم فى فهرسته، ونحن لا نصل إلى القرن الثالث حتى نجده وقد ستوت له شهرة فائقة بين كتاب عصره..» (الفن ومذاهبه ص ١٥٦). فلم يترك موضوعًا عامًّا إلا وكتب فيه رسالة أو كتابًا، وأن من يرجع إلى رسائله وكتبه يجده قد ألف فى النبات، وفى الشجر، وف الحيوان، وفى الإنسان وفى المعاد والمعاش وفى الجد والهزل، وفى الترك والسودان وفى المعلمين والقيان، وفى الجوارى والغلمان، وفى العشق والنساء، وفى النبيذ وفى الشيعة والعباسية، وفى الزيدية والرافضة، وفى الرد على النصارى وفى حجج النبوة ونظم القرآن وفى البيان والتبيين، وفى حيل لصوص النهار وحيل سرّاق الليل، وفى البخلاء واحتجاج الأشحاء. وإن فى هذا ما يدل - كما يقول شوقى ضيف - على أن الجاحظ خطا بالكتابة الفنية عند العرب خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات فى خلابة وبيان عذب، وكأنى به لم يكن يفهم أن الكتابة الأدبية ألفاظ ترصف، وإنما كان يفهمها على أنها معان تنسق فى موضوع خاص مما يتصل بالطبيعة أو بالإنسان. وكان لذلك صنعته الخاصة فى كتابته، فإنها كانت ذات موضوع قبل أن تكون ذات أسلوب» (ص١٦٠-١٦١) ويقول شوقى ضيف «وأكبر الظن أننا لا نبعد إذا قلنا إن الصفات الفنية الأساسية فى كتابات الجاحظ هى الواقعية والاستطراد، وضروب من التلوين الصوتى، وأخرى من التلوين العقلى» (الفن ومذاهبه ص١٦٢).

وبهذا النفاذ إلى سر الفن البيانى عند الجاحظ يقف شوقى ضيف ليفصل هذه العناصر الفنية الأربعة فى كتاباته.. ويعتصر الباحث فى نقده وتحليله النصوص الأدبيـة المختلفة التى تسلك طريقها من أجل التوصل إلى مذهب الفن فى أدب هذا الكاتب الكبير.. ويقف شوقى ضيف بعد ذلك وقفة تحليلية خاصة عند رسالة للجاحظ «تجمع بين دفتيها محاسن التفكير الدقيق، والتعبير الأنيق» وهى رسالة التربيع والتدوير (الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص١٧٧-١٨٨)، لنجد هذه العناصر الأربعة كلها مجتمعة متبلورة فى هذه الصنعة الجاحظية. ونخرج من هذا كله إلى أن مذهب الصنعة من بين مذاهب الفن هو الذى غلب على النثر العربى فى العصر العباسى، قبل أن يتحول به الطريق مع نهاية القرن الثالث، وبداية القرن الرابع، حين استخدم أسلوب السجع الذى يتكامل به - كما يقول شوقى ضيف - «أحد الجانبين الأساسيين فى مذهب التصنيع، وهما السجع والبديع» (الفن ومذاهبه ص٢٠١). أما الجانب الثانى، وهو جانب البديع، فهو ما سيتحقق فى صورته الواضحة عندما ندخل عصر الدول والإمارات الذى يعتبره شوقى ضيف عصرًا مستقلاً عن العصر العباسى، تاليًا له، مختلفًا عنه.

أ. د. سعيد منصور
أستاذ الأدب العربى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية